الجمهورية العربية السورية

وزارة التربية

المركز الوطني للمتميزين

حلقة بحث أدبية

بعنوان

بين شعراء الصعاليك وشعراء الأمراء الفرسان

إعداد الطالبة : ميرا العجي

إشراف المُدرسة : ريم حيدر

تمهيد :

جاء الأدب العربي خليطاً من الطوائف الشاعرية التي وسعت خيالها بالشعر فجعلته وسيلة للترويج عن فقرهم و مشاكلهم ،في حين كانت طوائف أخرى من المستوى الرفيع عملوا على إظهار فروسيتهم و حروبهم البسولية ، فكلٌ منهم اتخذ موقفاً أوحادثة و بنى عليه شعراً ، فمن هؤلاء الطوائف؟ ومن أين نبع شعرهم ؟ وما المنطلقات التي اعتمدوا عليها في شعرهم؟ وهل اختلفوا من حيث الأفكار والحوادث؟

ومن هنا تشكل المجتمع الجاهلي بأطيافه و قبائله ، فعاش فيه من الصعلوك إلى الأمير ،فكان الصعاليك في طريق إبراز فقرهم و نشر العدالة الاجتماعية ،و على خلاف ذلك كان الأمراء الفرسان ذوي الشعر الجاهلي المفعم بالتفاخر بمغامراتهم الحربية و غناهم بقصص النصر و الشجاعة ، فجاء شعر كل منهم جديداً في أفكاره و معانيه و طرائقه في شعرهم . فيا ليت علمي و بحثي يكفي لإستبيان صحة اختلاف الصعاليك عن الأمراء أو تشابهما في التعبير والتصوير.

الصعاليك

الصعلكة في العصر الجاهلي:

حين نرجع إلى أخبار الصعاليك نجدها حافلة بالحديث عن فقرهم ،فكل الصعاليك فقراء، لا نستثني منهم أحداً، حتى عروة بن الورد سيد الصعاليك الذي كانوا يلجؤون إليه كلما قستْ عليهم الحياة ،ليجدوا عنده مأوى لهم حتى يستغنوا ، فالرواة يذكرون أنه "كان صعلوكاً فقيراً مثلهم"[١]، و أخوه وابن عمه يقولان له _ حين عرض عليه أهل امرأته التي أصابها في بعض غزواته أن يفتدوها _" والله لئن قبلت ما أعطوك لا تفتقر أبداً"[٢]،بل أكثر من هذا يذكر الرواة أنه جاء بامرأته إلى بني النضير " ولا شيء معه إلا هي، فرهنها، ولم يزل يشرب حتى غلقت " [٣]، وتكثر

[١] التبريزي : شرح حماسة أبي تمام ٩١٢ .
[٢] الأغاني ٧٧١٣.
[٣] المصدر نفسه ٣٨١ –وغلق الرهن في يد المرهن : استحمله، وذلك إذا لم يقدر الراهن على افتكاكه في الوقت المشروط .

في شعره أحاديث فقره، وما يعانيه من حرمان، وما يتكبده في سبيل الغنى من ثقل التبعة التي يتحملها إزاء أهله، وإزاء أصحابه الصعاليك أيضاً :

ذَريْني للغِنى أسْعى ، فإنِّي رأيْتُ الناسَ شرَّهُم الفقيرُ (١)

فسِرْ في بلادِ اللهِ والتمِسْ الغِنى تَعِشْ ذا يسار أو تموتُ فتَعْذُر(٢)

ومنْ يكُ مُثلى ذا عيالٍ ومقتِراً منَ المالِ يطرحُ نفْسَه كلّ مطرحِ(٣)

وهذا الفقر الذي استبد بحياة الصعاليك حمل لهم في ركابه الجوع ،فالجوع –كما يقرر علماء الاجتماع- أول الدوافع المسيطرة على حياة الإنسان(٤).وقد كان من العرب من يغير من أجل الحصول على الطعام (٥) بل إن كثيراًمن الصراع الداخلي بين القبائل الجاهلية إنما يرجع –من بعض جوانبه – إلى الجوع و الفقر (٦)، وما أكل ضباب الصحراء و برابيعها سوى مظهر من مظاهر هذا الجوع القاتل الذي كان يعانيه عرب البادية حين يجدبون و تتتابع عليهم السنين .

١

ويكثر الحديث عن الجوع في شعر الصعاليك فقد انتشر في شعر عروة مناقشات بينه وبين صعاليكه حول الجوع الذي كان يجهدهم في غزواتهم . وقد انقسم الصعاليك إلى طائفتين :

طائفة قبلت ذلك الوضع الاجتماعي الذليل، رضيه لهم ضعف في النفس أو ضعف في الجسد أو ضعف في النفس و الجسد جميعاً، وطائفة رفضت ذلك الوضع ،وأبت أن تعيش تلك الحياة الساقطة التافهة المهينة، ووجدت في القوة، قوة النفس و قوة الجسد، وسيلة تشق بها طريقها في الحياة . وفي شعر عروة موازنة طريفة بين هاتي الطائفتين، يعقدها أبو الصعاليك في دقة وبراعة، ويصور فيها اختلاف ما بينهما في الشخصية، وأسلوب الحياة

---

(١)ديوانه /١٩٨

(٢) ديوانه /١٩١

(٣) ديوانه /٩٩

(4) Groves : Personality and Secial Adjustment p.27

(٥) ابن دريد : الاشتقاق /٢٤٦

(٦) انظر حديث الأصمعي في الأغاني ١٤ /٣٩

و الغاية التي تنتهي إليها كل منهما[1]. وتتجلى قوة نفوس هذه الطائفة الثانية من الصعاليك في استهانهم بالحياة في سبيل الوصول إلى الغاية التي يسعون إليها . إنهم يريدون أن يحققوا لهم مكانة في هذا المجتمع الذي يحتقرهم ويستهين بهم عن طريق فرض أنفسهم بالقوة عليه، وهم في سبيل هذا لا يبالون بشيء، حتى بالحياة نفسها، فهم جميعاً مؤمنون بفكرة الفناء في سبيل المبدأ، وما قيمة الحياة إذا عاش الإنسان فقيراً محتقراً، منبوذاً من مجتمعه، مجفواً من أقاربه ؟ إنَّ الموت في هذه الحالة خير من الحياة .
ولكن على الرغم من ذلك انقسم الصعاليك نفسهم إلى طوائف و عصابات وكان منها طائفة " الخلعاء و الشذاذ" الذين أنكرتهم قبائلهم وتبرأت منهم، وطائفة "الأغربة" السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم الإماء، ثم طائفة "الفقراء المتمردين" الذين تصعلكوا نتيجة الظروف الاقتصادية التي كانت تسود المجتمع الجاهلي .

ولكن نشوء هذه الطوائف شكل انفصال بين طبقات المجتمع الجاهلي فساد الصراع بينهم .

ديوان الصعاليك :

إن دراسة شعر الصعاليك مسألة بالغة الخطر، تواجه الدارس منذ البداية،

و توشك أن تنصرف به عن المضي في دراسته، إذ هي عماد هذه الدراسة، و المحور الذي تدور حوله، تلك هي مسألة مصادر هذا الشعر: أين هي؟

ومن الحق أن نسجل قبل الإجابة عن هذا السؤال أن مسألة مصادر هذا الشعر الجاهلي من المسائل التي تواجه الباحثين فيه منذ البداية، ذلك لأن أكثر مجموعات شعر القبائل التي تزخر بأسمائها كتب التراجم قد فقدت، ولم يصل إلينا منها إلا القليل، أما دواوين الشعراء فقد تركزت عناية الرواة و الشراح بدواوين المشهورين منهم، أما أولئك الذين لم يكن لهم خطر في نظرهم فلم يكن حظهم من العناية بهم كبيراً .

[1] من ديوان " لحا الله رسولاً" /٧٣-٨٢ .

هذا إلى أن عمل هؤلاء الرواة والشراح قد اتجه اتجاهاً فنياً أو لغوياً خالصاً، أما فكرة جمع الوثائق الأدبية التي تمثل الجوانب الاجتماعيةأو الاقتصادية أوالدينية أوغير ذلك من جوانب العصر المختلفة فشيء وراء اهتمام هؤلاء الرواة، مع ما له من أهمية للباحث الأدبي والباحث التاريخي على حد سواء . وليس من شك في أن هؤلاء الرواة لو نظروا إلى عملهم على أنه عمل تاريخي يحرص على تسجيل كل جوانب العصر الذي يجمعون وثائقه الأدبية، حتى تلك التي تصور انحطاطه أو ضعفه، لتغير وجه التاريخ الأدبي القديم تغيراً كبيراً .

إن هؤلاء الشعراء الصعاليك اقتبسوا شعرهم من مصادر عدة أولها قبائلهم نفسها على اختلافها و ثانيها القبائل التي استجار بها الخلعاء منهم، أما المصدر الثالث لشعر الصعاليك فهو الصعاليك نفسهم . [1]

موضوعات شعر الصعاليك :

إن اختلاف مصادر شعر الصعاليك أحدث تنوعاً فيه فانقسمت موضوعاته إلى قسمين ففي البداية تناول شعرهم موضوعات عن مغامراتهم الحربية و شجاعتهم و قوة أسلحتهم و غزواتهم على الخيل، ثم جاؤوا بشعر لم يكن للتصعلك مجال فيه بل انحصرت موضوعاته بتلك الموضوعات العامة التي يعرفها الشعر العربي (المدح والهجاء والرثاء)، فكان المدح و الهجاء مفضلاً لدى بعض الشعراء فاتخذوا منهما وسيلة من وسائل العيش التي تغنيهم عن التصعلك . أما الرثاء فقد اختص به أبو الخراش، شأنه في ذلك شأن سائر الشعراء الهذليين الذين عرفوا بمقدرتهم الرثائية الفائقة .

الظواهر الفنية في شعر الصعاليك :

شعر المقطوعات :

حين ننظر في شعر الصعاليك الذي بين أيدينا من الزاوية التي تظهرنا على بنائه الخارجي، فأول ما يلفت نظرنا فيه أنه شعر كمقطوعات، ولسنا نعني بهذا انعدام القصيدة فيه، وإنما نعني ذيوع المقطوعة أكثر من ذيوع

[1] بتصرف "الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي" /١٥٣-١٨١/ للكاتب الدكتور يوسف خليف .

القصيدة، فهل نتصور مثلاً أن الشاعر الصعلوك يفرغ لفنه كما كان يفرغ زهير لحولياته، أو امرؤ القيس في حياته اللاهية الفارغة المطمئنة التي ضمن له رغدها ملك أبيه، أو النابغة في حياته المستقرة في بلاط المناذرة و الغساسنة ؟ الأمر الذي لاشك فيه هو أن حياة الصعاليك كانت حياة قلقة مضطربة، وأنهم جميعاً كانوا يشعرون شعوراً عميقاً بأنها حياة قصيرة، و بأنهم دائماً على موعد مع الموت الذي يترصدهم ترصد الموتور، حتى كثر ذكر الموت عندهم، وتردّد الحديث عنه في شعرهم، صدى لما كان يجيش في نفوسهم من إحساس عميق بقصر حياتهم.

ولذلك من المحتمل أن يكون السبب في كثرة المقطوعات في شعر الصعاليك أنه وصل إلينا مفرقاً في مصادر مختلفة اقتصر كل منها على ما يستشهد به منه، وأنه لو كان قد وصل إلينا مجموعاً في ديوان مفرد أو دواوين مفردة لكان من الجائز أن يكون قصائد طويلة .[1]

الوحدة الموضوعية :

إن الناظر في شعر الصعاليك تلفت نظره تلك الوحدة الموضوعية في مقطوعاته وكثر قصائده، بحيث يستطيع أن يضع لكل مقطوعة عنواناً خاصاً بها، دالاً على موضوعها . أما الآن نسطتيع أن نمضي مع مجموعة شعر الصعاليك فلا نكاد نخطئ الوحدة الموعوضية في كل مقطوعاتها و أكثر قصائدها، سواء ما كان منها في وصف المغامرات أو الحديث عن سرعة العدو أو الفرار أو تقرير فكرة اقتصادية أواجتماعية أوغير ذلك من موضوعات شعر الصعاليك التي عرضناها في الفصل السابق .

إن تفسير هذه الظاهرة هو تقليد للشعر القبلي الذي كان مسيطراً على الحياة الفنية في المجتمع الجاهلي وهذا التقليد ليس من الصعب أن نتصوره فأظن أنه ليس من اليسير أن نتصور أن الشعراء الصعاليك -برغم ما كان بينهم و بين مجتمعهم من نفور – قد بعدوا كل البعد عن الحياة الفنية في مجتمعهم أو نفروا كل النفور منها، وإنما المعقول أن نتصور أنهم كانوا أحياناً يحاولون تقليد تلك النماذج الفنية التي كان مجتمعهم يقدرها كل

[1] بتصرف "الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي" /٢٥٩-٢٦٤/ للكاتب الدكتور يوسف خليف .

التقدير، لعلهم يظفرون بنوع من تقدير المجتمع لهم، ولو تقديراً فنياً، بعد أن يئسوا من تقديره لهم تقديراً اجتماعياً .

وعلى كل حال فهذه الظاهرة، ظاهرة تقليد الشعراء الصعاليك للشعر القبلي في صورته الشكلية، ظاهرة قليلة الذيوع في مطولات شعر الصعاليك، ومنعدمة تماماً في مقطوعاته، فليست من الخطر في شيء على فكرتنا التي نقررها، فكرة "الوحدة الموضوعية في شعر الصعاليك ".[1]

التخلص من المقدمات الطللية :

إذا استثنينا هذه المجموعة التقليدية من شعر الصعاليك فإننا نصل إلى تسجيل ظاهرة ثالثة، وهي ظاهرة " التخلص من المقدمات الطللية ". وهذا طبيعي ما دام الشعراء الصعاليك يحرصون على الوحدة الموضوعية في شعرهم، إذ أن المقدمات الطللية تخل – بطبيعة الحال – بهذه الوحدة الموضوعية . وفيما عدا تلك المجموعة التقليدية التي أشرنا إليها لا نعثر فيما بين أيدينا من شعر الصعاليك على مقطوعة أو قصيدة تبدأ بمقدمة غزلية، وإنما اتخذ الشعراء الصعاليك لهم مذهباً آخر استعاضوا به عن هذه المقدمات، وهو مذهب جعلوا محوره " حواء خالدة " أيضاً، ولكنها ليست المرأة المحبوبة التي عرفناها عند الشعراء القبليين، تلك التي يتدلّه الشاعر في حبها و يبكي أيامه معها، و يقف على أطلال ديارها، ويدعو أصحابه إلى الوقوف معه، ولكنها المرأة المحبة الحريصة على فارسها، التي تدعوه دائماً إلى المحافظة على حياته، إن لم يكن من أجل نفسه فمن أجلها هي .

وليس من شك في أنها براعة ممتازة أن يضع الشعراء الصعاليك في مستل قصائدهم صورة للأنثى الضعيفة التي يظهر صاحبها إلى جوارها بطلاً قوياً مستهيناً بحياته من أجل فكرته، يرفض نصيحتها في رفق و أدب، ويقابل جزعها بابتسامة الواثق بنفسه، المعتد بشخصيته، ويحاول أن يقنعها في قوة وإيمان بسداد رأيه، وسلامة مذهبه في الحياة . والبراعة هنا أن ترجع إلى وضع صورتين متقابلتين في معرض واحد مما يترتب

[1] بتصرف "الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي" /٢٦٤-٢٦٨/ للكاتب الدكتور يوسف خليف .

عليه وضوح الألوان الفنية في كلتيهما، وهو وضع يذكرنا بما نعرفه من آداب فرسان أوربا في العصور الوسطى، حيث كان لكل فارس سيدة يضع كل مفاخر حياته بين يديها . ومن هنا نستطيع أن نطلق على هذه المقدمات النسائية عند الشعراء الصعاليك " مقدمات الفروسية في شعر الصعاليك " في مقابل "المقدمات الطللية في الشعر القبلي " .

وعلى كل حال فإذا صحَّت نسبة هذين المطلعين إلى السليك و تأبط شراً، ولم يكونا من صنع اللغويين والجغرافيين العرب، فإننا نضيفهما إلى تلك المجموعة التقليدية من شعر الصعاليك التي تعد شذوذاً على خصائص شعر الصعلكة وهما على كل حال لن يغيرا شيئاً من الحقيقة التي قررناها، والتي نراها في أكثر نماذج شعر الصعلكة، وهي تخلصه من المقدمات الطللية .[1]

عدم الحرص على التصريع :

إن ظاهرة عدم الحرص على التصريع اتصلت مع الظواهر الأخرى من حيث البناء الخارجي لشعر الصعاليك في مطالع نماذجه الفنية . وقد كان يخيل للمرء في أول الأمر أن هذه الظاهرة قد تكون خاصة بمجموعة الشعر داخل دائرة الصعلكة دون سائر شعر الصعاليك، أوبالمقطوعات منه بالذات، أو بالقصائد ذات الوحدة الموضوعية، ولكن حين يستعرض هذا المرء مجموعة شعر الصعاليك كلها رأى أن هذه الظاهرة توشك أن تكون مطردة في كل شعر الصعاليك سواء ما كان منه داخل دائرة الصعلكة وما كان خارجها، وسواء ما كان مقطوعات أو قصائد، وسواء ما كان خاضعاً للوحدة الموضوعية أو خارجاً عليها، وذلك لوجود مجموعة من نماذجه الفنية يظهر التصريع في مطالعها، وهي مجموعة –وإن تكن قليلة – تحول دون إطلاق الحكم على كل شعر الصعاليك . ولكن الشيء الذي نحرص على تسجيله هو أن هذه الظاهرة لا تختص بمجموعة خاصة من شعر الصعاليك دون مجموعة، ولو أنها كانت مختصة بمجموعة دون مجموعة لالتمسنا تعليلها في خصائص المجموعة التي تختص بها ، ولكن

[1] بتصرف "الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي" /٢٦٨-٢٧٤/ للكاتب الدكتور يوسف خليف .

انتشارها بهذه الصورة "اللاقاعدية" تجعلنا نلتمس [1]لها تعليلاً آخر . وتعليلها عند الرجوع إلى تلك الثورة التي كانت تجيش بها نفوس الصعاليك على أوضاع مجتمعهم، وإلى تلك الحرية التي كانوا يعيشون فيها و التي كانت ترفض الخضوع لتقاليد مجتمعهم، تلك الثورة و ذلك الحرية ظهرت آثارهما عن طريق العقل الباطن في حياتهم الفنية، فكان شعرهم ثائراً على الأوضاع الفنية في الشعر الجاهلي القبلي، حراً في أوضاعه الفنية (١).

التحلل من الشخصية القبلية :

ونترك هذه الظاهرة الفرعية لنسجل ظاهرة أساسية في "الشعر داخل دائرة الصعلكة" وهي ظاهرة "التحلل من الشخصية القبلية" . وهي ظاهرة ليست غريبة على شعر الصعاليك لأنها تتفق مع ما سجلناه من قبل في دراستنا الاجتماعية لظاهرة الصعلكة من فقد التوافق الاجتماعي بين الصعاليك و قبائلهم مما ترتب عليه فقد الاحساس بالعصبية القبلية في نفوسهم . ومن الطبيعي ألا تظهر شخصية القبيلة عند شاعر فقد إحساسه بالعصبية القبلية، وما دامت الصلة بين الشعراء الصعاليك وبين قبائلهم قد انقطعت اجتماعياً فمن الطبيعي أن تنقطع فنياً، ونعني بانقطاعها فنياً تحلل الشاعر الصعلوك من ذلك "العقد الفني" الذي نراه بين الشاعر القبلي و قبيلته، فلا يكون الشاعر الصعلوك "لسان عشيرته" لأن ما بينه وبين عشيرته قد انقطع، ولا يكون شعره "صحيفة قبيلته" لأنه لم تعد له قبيلة، وإنما يصبح شعره صورة صادقة كل الصدق من حياته هو، يسجل فيه كل ما يدور فيها، ويصبح ضمير الفرد "أنا" أداة التعبير فيه بدلاً من ضمير الجماعة "نحن" الذي هو أداة التعبير في الشعر القبلي، وتصبح المادة الفنية لشعره مشتقة من شخصيته هو لا من شخصية قبيلته.

والذي نريد أن نصل إليه من هذا هو تفسير ما نراه في الشعر داخل دائرة الصعلكة من آثار الجماعة، فضمير الجماعة "نحن" الذي يتردد أحياناً فيه

[1] بتصرف "الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي " /٢٧٤ -٢٧٦/ للكاتب الدكتور يوسف خليف .

ليس هو الضمير نفسه الذي نراه في الشعر القبلي، فنحن هنا نعبر عن الشخصية الجماعية، ولكنها هناك تعبر عن الشخصية القبلية .[1]

الأمراء الفرسان

حياة الشعراء الأمراء الفرسان:

رأينا القبائل في الجاهلية تعيش معيشة حربية، فهي كتائب تنزل للرعي، وفي الوقت نفسه تجهز بالأسلحة كي تدفع خصومها عن مراعيها، أو تغير عليهم وتسبي نساءهم وتنهب أموالهم من الإبل وغير الإبل. وكانوا يحاربون راجلين وركباناً على الإبل والخيل، وكانوا يرون في الثانية مزية على الأولى لسرعتها في الطراد والإغارة، فأحبوها وعنوا بها وبتربيتها وصيانتها واستنتاج كرائمها وترويضها للحروب والسباق. وقد دارت أوصافهم لها في شعرهم الجاهلي، فلم يكادوا يتركون عضواً من أعضائهم إلا وصفوه، ولا خصلة ولا عيباً إلا ذكروهما، وفي معلقة امرئ القيس صورة من وصفهم لخيلهم، وممن اشتهر بوصفها أبوا دُؤَاد الإيادي وطُفيل الغنوي وسلامة بن جندل التميمي .

فاشتهر جماعة من الفرسان الذين أظهروا بطولة نادرة في حربهم عليها لخصومهم وأقرانهم، وهم كثيرون، فقد كان لكل قبيلة فارسها أو فرسانها الذين يتدربون على ركوب الخيل طويلاً وكيف يقفزون عليها ويشربون

[1] بتصرف "الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي" /٢٧٦-٢٧٨/ للكاتب الدكتور يوسف خليف .

سيوفهم ويلوّحون برماحهم وكيف يسددون ضرباتهم إلى أعدائهم. وتلقانا دائماً أسماؤهم وخاصة في حروبهم الطويلة مثل حرب البسوس وفارسها المهلهل التغلبي، وهو الذي أشعل نيرانها ثأراً لأخيه كليب، ويقال إنه أول مَن هلهل الشعر وأرقَّه [١].وشعره يدور في رثاء أخيه وتوعُّد قبيلة بكر بما سينزله بها من هزائم لا تقل شدة ولا فتكاً عن هزائمها السابقة، وكانت الحرب بين بكر وقبيلته تغلب سجالاً، تارة تنتصر هذه وتارة تنتصر تلك. وكان لا يني يحمِّس قومه و يدعوهم إلى مواصلة القتال، مفصحاً في أثناء ذلك عن رغبة حارة في الانتقام، واسمعه يقول: [٢]

وإني قد تركتُ بواراتٍ بُجَيْراً في دَمٍ مثلِ العَبيرِ [٣]

وهمّام بن مرَّةَ قد تركنا عليه القَشْمعان من النُّسورِ [٤]

وصبَّحنا الوُخومَ بيومِ سَوْءٍ يُدافعْن الأَسنَّةَ بالنُّحورِ [٥]

كأَنا غُدْوَة وبَني أَبينا بجَوْفِ عُنَيْزَةٍ رَحَيا مُديرِ [٦]

تكامل الفروسيَّة عند الشعراء الفرسان :

احتفظ التاريخ العربي بشعراء فرسان لم ينقطع ذكرهم ولا يزالوا قائمين في ذاكرة العرب في أجيالهم التالية إلى يومنا الحاضر ومن أهمهم الفارس عنترة بن شداد(وقيل ابن عمرو بن شداد) العَبْسيّ، وكان أبوه من أشراف عبس، أما أمه فكانت حبشية يقال لها زبيبة، وقد ورث عنها سواده وتشقق شفتيه، فكان يقال له الفلحاء.

وقد أشار في قصيدة له إلى كرم أصله الأبوي أو شطره الأول، أما شطره الثاني من جهة أمه فتنوب عنه شجاعته واقتحامه للحروب، حتى غدا في قومه خيراً من عمه وخاله من سادتهم، إذ لا يغني القبيلة أحد غناءه ولا

---

[١] انظر أخباره في الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٤/٥ والشعر والشعراء ٢٥٦/١ ، وخزانة الأدب البغدادي٣٠٢/١ .
[٢] الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ١٧٤ والاغاني ٥٣/٥ .
[٣] واردات: موضع سميت به موقعة حدثت فيه بين بكر وتغلب في حرب البسوس . العبير : الزعفران .
[٤] القشعم من النسور: الغشخم ، وهمام: أخو جساس قاتل كليب .
[٥] الوخوم: عشيرة من بكر .
٦ عنيزة : موضع سميت به إحدى وقائع حرب البسوس . والرحيان إذا أدارهما مدير أثرت كل منهما في الأخرى، والصورة واضحة

يذود عن حماها ذياده، ويصوِّر لنا في هذه القصيدة أيضاً شجاعته وجرأته تصويراً باهراً إذ يقول [1]:

إني امرؤٌ من خير عَبْس مَنْصِباً شَطْرى، وأَحْمى سائري بالمُنْصُلِ[2]

وإذا الكتيبة أَحجمتْ وتلاحظتْ أُلفِيتُ خيْراً من مُعَمٍّ مُخْوَلِ[3]

بكَرت تخوِّفني الحُتوفَ كأَنني أَصبحتُ عن غَرض الحتوفِ بِمَعْزلِ[4]

فأجبتُها إن المنيَّة مَنْهَلٌ لا بد أن أُسْقَى بكأسِ المنْهَلِ[4]

فاقْنيْ حياءَكِ لا أَبالكِ واعلمي أني امرؤٌ سأَموت إن لم أُقْتَل[5]

فهولا يستمع إلى تخويف صاحبته له مما قد يلقاه من المكاره والمتالف بسبب تهافته على الحروب، بل إنه ليصمّ أذنيه عن ندائها قائلاً لها إن المنية مورد كل إنسان ولا بد أن أموت، فليكن موتي شريفاً في ميدان الحروب. ويدعوها أن تصون حياءها، فهو ميت على كل حال، وخير له أن يموت مناضلاً عن قومه مدافعاً عن نسائهم وأطفالهم وضعفائهم. ولا يلبث إحساسه ببطولته أن يتضخم في نفسه، فإذا هو يتصوَّر أن المنيَّة لو خلقت في مثال لكانت في مثل صورته وخلقته، وهو يقتحم الصفوف، والخيل ساهمة من هول الحرب، والفرسان كالحة وجوههم كأنما يشربون من نقيع الحنظل .

وقد طارت شهرة عنترة بالفروسيَّة والشجاعة النادرة منذ الجاهليَّة، وما زالت ذكراه عالقة بأذهان العرب إلى اليوم، فهو مثلهم الأعلى في البسالة والبطولة الحربية، وقد اتُّخذت من أخباره نواة للملحمة المعروفة باسمه والتي يمكن أن تُعد إلياذة العرب، وهو فيها يحارب في الجزيرة العربية وخارجها، وينازل الصليبين، وبذلك كانت هذه القصة أوالسيرة تلخص تاريخ العرب وملحمة فروسيتهم في الجاهلية وفي الفتوح الإسلامية وبعد

[1] مختار الشعر الجاهلي ص ٣٨٨ .
[2] منصباً: أصلاً . المنصل: السيف .
[3] تلاحظت: نظرت منيقدم على العدو .
٤الحتوف: المتالف .
[4] منهل: مورد .
[5] اقني: احفظي وصوني .

الفتوح في حروبهم مع الروم الصليبين في الشرق والغرب ونحن لا نعني الآن بعنترة الإسطورة، إنما نعني بعنترة الفارس الجاهلي الذي دوَخ الأقران والأبطال في حروب داحس والغبراء، وبذلك غسل مذمة ولادته ولونه وفلح شفتيه، والذي لا شكَ فيه أنه كان على خلق عظيم وأنه كان يجمع إلى فروسيته الماديَّة فروسيّة خلقيّة أو معنويّة .

ولا بدَّ أن نلاحظ بصفة عامة أن الفروسية الجاهلية بعثت في نفوس أصحابها ضرباً من الإحساس والتسامي والمروءة الكاملة فإذا هم يتغنون دائماً بمجموعة من الفضائل والخصل الحميدة، واقرأ فيهم فستراهم يتحدثون عن كرمهم الفيَّاض ووفائهم وحلمهم وعزتهم وصبرهم على الشدائد وتحمل المشاق وحفاظهم على العهد وحماية الجار، وهو جانب واضح في أشعار عنترة، كما كان يمكن أن يُعدُّ أباً لشعر الحب العذريِّ عند العرب، ويعد فعلاً أباً للفروسية العربية بخصالها وحِلالها النبيلة السامية التي استرعت أنظار الصليبين فاتخذوا منها مثالاً لفروسيتهم وما انطوى فيها من حبٍّ عذريّ [1] .

وردّدْ البصر في أشعار عنترة فستجده يأسر لبَّك بمُثُله الخلقيّة الرفيعة فهو مع فروسيته وبذله لنفسه في سبيل قومه سَمِحْ السجايا، سهل المخالطة والمعاشرة لا يبغي على غيره ولا يحتمل البغي ولا يظلم ولكنّه لا يستكين للظلم فإن ظُلِم تحوّل إلى إعصار عاصف حتى يأتي على ظالمه.

إنَّ عنترة بهذا كلَّه يصوِّر لنا المروءة الجاهلية الكاملة، وهي مروءة طرَّزها حبٌّ عذري عفيف لابنة عمه عبلة، وحقاً إنَّ هذا الحب إنما شاع في بوادي نجد في أثناء العصر الأموي، بسبب المعاني الروحية التي بثَّها الإسلام في نفوس العرب، وهو لم يشع في الجاهلية، إنما ظهر عند بعض الأفراد من الفرسان مثل عنترة، فقد كان يتسامى لا في خلقه فحسب، بل أيضاً في حبه، وقد جعله ذلك غير قليلٍ من الأسى والحزن حين رفض عمه يده، فلم يزوجه من ابنته .

[1] انظر قصة الحضارة (لول ديورانت) الجزء الثالث من المجلد الرابع، الفصل الخامس الخاص بالفروسية ص٤٤٦ وما بعدها

ومضى يحبها حباً عنيفاً، أو قلَّ حباً يائساً محروماً فيه طهارة النفس ونقاؤها وفيه الفؤاد الملذَّع الذي يكظم حزنه فتفضحه عبراته، يقول [1] :

أفمن بكاءِ حمامةٍ في أيكةٍ ذرفَتْ دموعَكَ فوقَ ظهرِ المَحملِ[2]

فالحمام يهيجه كما يهيّج النسيم الذي يهب من صوبه، وكما تهيجه الرسوم والأطلال، إذ يبعث الحنين بعقله وقلبه، يقول في معلقته :

حُيِّيت من طللٍ تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم[3]

ولقد نزلت –فلا تظنِّي غيره- مني بمنزلة المحبِ المُكرَمِ

ودائماً نراه يعبّر عن ظمأ شديد إلى رؤيتها، لا لغاية حسية ولكن ليمتع طرفه بجمالها . ومن أهم ما يلاحظ عنده أنه يقدم لها في معلقته وغير معلقته مغامراته الحربية، فمن أجلها يحارب ويستبسل في القتال، ومن أجلها يذود عن قومه ويحمي حماهم، ومن أجلها يسوق كل مناقبه ومحامده. وكان حين يشتد القتال يلمع خيالها أمام عينيه فيندفع كالثور الهائج، يقول:

ولقد ذكرتُكِ والرِّماحُ نَواهِلٌ منِّي وبيضُ الهندِ تقطرُ من دمي

فودَدَّتُ تقبيلَ السيوفِ لأنها لمعتْ كبارقِ ثغركِ المُتَبَسِّمِ

فهو دائم الذكر لها في وغى الحرب، حتى حين تعبث به سيوف أعدائه ورماحهم، إنه من أجلها يحارب ويخاطر ويغامر، فلا غرو أن يذكرها في ساعات القتال الحرجة، فإذا هو يتحول إلى أسد ضارٍّ لا يعبس، بل يبتسم، لأنها تتراءى له من خلال بريق السيوف فيؤمن بأنه منتصر .

وعلى هذا النحو تكاملت الفروسيَّة عند عنترة، فلم تصبح فروسيَّة حربيَّة فحسب، بل أصبحت فروسيَّة خلقيَّة سامية، فيها الحبُّ الطَّاهر العفيف الذي يجعل من المحبوبة مثلاً أعلى والذي يرتفع صاحبه عن الغايات الجسديَّة الحسيَّة إلى غايات روحيَّة تنمُّ عن صفاء النفس ونقاء القلب، وفيها

---

[1] مختار الشعر الجاهلي ٣٨٧.
[2] ايكة : شجرة .ذرفت : سالت . المحمل : علاقة السيف .
[3] أقوى وأقفر : خلا ممن كان يسكنه .

التَّسامي عن الدَّنايا والنَّقائض الذي يملأ النُّفوس بالأنفة والإباء والعزة والكرامة والحسّ المرهف والشُّعور الدَّقيق، وعلى نحوه تكاملت فروسيَّة الشُّعراء الأمراء الذين زرعوا في شعرهم معاني الجرّأة والقوّة في الحرب بالإضافة إلى أخلاقهم النّبيلة السّامية، فاقتبسوا منطلقات شعرهم من غزواتهم ومغامراتهم الغراميّة وفروسيَّتهم ونشروا دواوينهم على أساس هذه المنطلقات [1].

[1] بتصرف "العصر الجاهلي" للكاتب الدكتور شوقي ضيف /ص ٣٧٤/

الخاتمة :

حاولت في الصحف السابقة أن أؤرِّخ لطائفتين من العصر الجاهلي وأعرِّف بهم وبشعرهم، فلاحظت تشابه صغير في شعر هاتين الطائفتين(الصعاليك والأمراء)،فكلاهما انطلق شعرهم من حروبهم ومغامراتهم، ولكن أمام هذا التشابه وجدت اختلاف كبير من حيث نوع المغامرات التي تحدثت عنها كل طائفة والموضوعات التي تناولتها في شعرها، حيث كان شعر الصعاليك في البداية يتحدث عن فقرهم وشحِّهم ثمَّ تناولوا مواضيع عن حروبهم ومغامراتهم وغزواتهم على الخيل، كما اقتبسوا مواضيع شعرهم من قبائلهم ومن الصعاليك أنفسهم، وتطرقت بعض أشعارهم على موضوعات عامة كالمدح والهجاء والرثاء .

أما الشعراء الأمراء فتحدث شعرهم عن فروسيَّتهم الحربيَّة والخلقيَّة أيضاً، وجعلوا الغرض من شعرهم في بعض قصائدهم هو الغزل والتحدث عن مغامراتهم الغرامية والارتقاء بالمحبوبة.

ومن خلال هذه المقارنة نستنتج أن الشعراء الصعاليك والأمراء اتفقوا في بعض المنطلقات ولكن اختلفوا من حيث الأفكار والحوادث التي دفعتهم للانطلاق بالشعر ونشر القصائد .

المصادروالمراجع:

*تاريخ الأدب العربي ١"العصر الجاهلي" للكاتب الدكتور شوقي ضيف، دار النشر "دار المعارف"، الطبعة الحادية عشر .

*مكتبة الدراسات الأدبية ٨ "الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي " للكاتب يوسف خليل، دار النشر "دار المعارف"، الطبعة الثالثة .

*قصة الحضارة (لول ديورانت) الجزء الثالث من المجلد الرابع .

*الأصمعيات (طبع في دار المعارف) .

*الأغاني (طبعة دار الكتب) .

الفهرس :

تمهيد ---------- ٢

الباب الأول: الصعاليك ---------- ٢-١٠

الفصل الأول: الصعلكة في العصر الجاهلي ----------٢-٤

الفصل الثاني: ديوان الصعاليك ----------٤-٥

الفصل الثالث: موضوعات شعر الصعاليك ---------- ٥

الفصل الرابع: الظواهر الفنية في شعر الصعاليك ----------٥-١٠

١-شعر المقطوعات ---------- ٥

٢-الوحدة الموضوعية ---------- ٦

٣-التخلص من المقدمات الطللية ---------- ٧

٤-عدم الحرص على التصريع ---------- ٨

٥-التحلل من الشخصية القبلية ---------- ٩

الباب الثاني: الأمراء الفرسان ---------- ١٠-١٥

الفصل الأول: حياة الشعراء الأمراء الفرسان ---------- ١٠-١١

الفصل الثاني: تكامل الفروسية عند الشعراء الفرسان ----- ١١- ١٥

الخاتمة ---------- ١٦

المصادروالمراجع ---------- ١٧